النمو الإنسانى فى الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى
النمو الإنسانى فى الإسلام

تناول القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة خلق الإنسان ونموه، وتطور هذا النمو ومبادئه وقوانينه.

فقد أشار القرآن الكريم إلى مراحل نمو الجنين منذ بداية الحمل حتى وقت الميلاد، وذلك فى الآيات التالية:

- ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر: ٦].
- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].
- ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٩].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].

يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى مراحل نمو الجنين فى الرحم منذ بداية

الحمل حينما تقوم إحدى الخلايا المنوية للأب بتخصيب بويضة الأم مكونة بذلك ما يسمى باللاقحة أو البذرة، وهى ما يعبر عنها القرآن الكريم بـا «النطفة» و«النطفة الأمشاج» حين يقول عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢].

والنطفة الأمشاج هى النطفة التى تتكون من منى الذكر وبويضة الأنثى ـ ثم تنقسم النطفة الأمشاج إلى عدد من الخلايا تتضاعف باستمرار ويزداد حجمها خلال اسبوعين من الحمل. وتتم عملية الانقسام والنطفة الأمشاج تتحرك فى قناة فالوب متجهة إلى الرحم، حتى إذا وصلت إليه كانت كتلة من الخلايا التى تشبه ثمرة التوت. وعندما تصل النطفة الأمشاج إلى الرحم تنغرز فى جداره وتتعلق به وعندئذ تبدأ مرحلة «العلقة» وتتصل بالحبل السرى الذى تستمد العلقة الغذاء عن طريقه من دم الأم مباشرة، وتبدأ الأغشية الجنينية فى التكوين، ثم تبدأ مرحلة «المضغة» فى الأسبوع الثالث. وتمتد فترة المضغة إلى نهاية الشهر الثانى حيث تبدأ مرحلة الجنين والتى تتميز بسرعة معدل النمو.

وخلال مرحلة الجنين تنمو الأجهزة الداخلية للجسم وتتمايز الأعضاء، ويزداد حجم الجنين بسرعة، وتتغير نسب الأعضاء، وتتكون العظام ثم تُكْسَى العظام بالعضلات التى يبدأ نموها مع تكوين العظام. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

ومع نهاية الشهر الثالث وبداية الشهر الرابع للحمل تبدأ الحركة فى الجنين حيث يتم اتصال الجهاز العصبى بالأجهزة الداخلية للجسم والعضلات وتبدأ نبضات القلب وفى نفس الوقت تُنفخ الروح حسب ما ورد فى الحديث الشريف، يقول رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسَلُ المَلَكُ فينفخ فيه الروح». ويتم تكامل أعضاء الجنين والشكل الخارجى له. وتستطيع الأم أن تحس بحركة جنينها فى نهاية الشهر الرابع وبداية الشهر الخامس حيث يمكن للطبيب بالوسائل الحديثة أن يُسمع الأم نبضات قلب جنيها، بل وتحديد نوعه أيضًا مع نهاية الشهر الخامس.

ومع تكامل الشكل النهائى للجنين يصدق قول الحق تبارك وتعالى فى وصف هذه المرحلة: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

ويصبح تشخيص الحمل تعيينًا بعد الشهر الرابع حيث نفخت فيه الروح ويُسمع نبض قلبه. وهذه حقيقة علمية أقرها الأطباء المتخصصون. ويشير القرآن الكريم بدقة إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وهذه الآية الكريمة تحدد فترة العدة للمرأة المتوفى عنها زوجها حيث حددت بالضبط عندما يكون تشخيص الحمل يقينيا لا لبث فيه.

ويحاط الجنين وهو فى الرحم بسائل يُطلق عليه (سائل الأمنيون Amnion) وهو سائل ملحى له خواص الغشاء يقوم بعدة وظائف هامة للجنين من بينها وقايته من الهزات ومن تأثيرات الجاذبية. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٣].

ويقول أيضًا: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات الآيات: ٢٠ ـ ٢٣].

ويشير القرآن الكريم إلى ما يحيط بالجنين فى رحم أمه بقوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ [الزمر: ٦].

وقد أمدنا علم الأجنة بتفسير علمى دقيق لهذه الظلمات الثلاث.

حيث تبين أن الجنين تحيط به ثلاثة أغشية هى:

١- غشاء الأمنيون Amnion وهو الذى يحيط بالجنين مباشرة.

٢- غشاء الكريون Chorion وهو الذى يتوسط بين الغشاء الأول والثالث.

٣- غشاء الساقط Decidua وهو ثالث الأغشية التى تحبط بالجنين، وهذا الغشاء يسقط مع الجنين عند الولادة ولذلك أطلقت عليه هذه التسمية (السقط أو الساقط).

وفيما يلى عرض لمراحل نمو الإنسان قبل ميلاده كما وردت فى القرآن الكريم:

١- **مرحلة النطفة:** وهى المرحلة الأولى من تكوين الجنين ونموه وتطوره.

وقد جاء ذكر النطفة فى عدة آيات من القرآن الكريم وتحمل عدة معان هى: (النطفة الذكرية أو منى الرجل)، (النطفة الأنثوية وهى بويضة المرأة)، النطفة الأمشاج وهى البويضة بعد تخصيبها بمنى الرجل أو ما يطلق عليها النطفة المختلطة من الحيوان المنوى والبويضة.

والأمشاج هى الأخلاط الناتجة عن امتزاج ماء الرجل بماء المرأة. ويعبر القرآن الكريم عن هذه العملية بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وقوله سبحانه وتعال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

والنطفة هى الخلية الواحدة. وقد تكرر ذكر النطفة ١٢ مرة فى القرآن.

٢- **مرحلة العلقة:** وقد تكرر ذكر «العلقة» خمس مرات فى القرآن الكريم.

تنقسم الخلية الواحدة التى اتحد فيها الحيوان المنوى للرجل مع بويضة المرأة، إلى ثنين ثم إلى أربع ثم إلى ثمانية... وهكذا حتى تتكون مجموعة من الخلايا... ثم تتمايز هذه الخلايا وتكون كتلتين من الخلايا إحداهما داخلية والأخرى خارجية حول الكتلة الداخلية، وتتطور الكتلة الخارجية إلى زوائد تعمل على تثبيت الكائن الداخلى وتغذيته، وهنا تكون العلقة قد اكتملت حيث تتعلق بجدار الرحم من الداخل. ولذلك تسمى «بالعلقة» وهذه أبلغ تسمية لهذه المرحلة، كما جاء فى التعبير القرآنى لوصف هذه المرحلة من تطور النمو الإنسانى قبل الميلاد، حيث تتعلق بجدار الرحم لتستمد تغذيتها من الأم.

٣- **مرحلة المضغة:** ورد ذكر المضغة فى القرآن الكريم فى سورتين فقط هما: سورة الحج آية ٥، وسورة المؤمنون آية ١٤.

وفى هذه المرحلة يكون المخلوق داخل الرحم كأنه قطعة من اللحم الممضوغ حيث تظهر فيها نتوءات وتجويفات تشبه إلى حد كبير آثار أسنان مغروزة، وهكذا تتطابق التسمية القرآنية مع الوصف الدقيق لهذه المرحلة ولم يجد العلماء فى وصف هذه المرحلة أدق من التسمية القرآنية لها.

ويشير القرآن الكريم إلى أن المضغة قد تكون مخلقة أو غير مخلقة.

والمضغة المخلقة هى التى يكتمل نموها وتكوينها وتستقر فى الرحم لحين الوضع (الولادة) حيث تتكون منها أجهزة الجسم كلها أما المضغة غير المخلقة فهى التى لا يكتمل نموها وتسقط من الرحم قبل اكتمال النمو.

والدليل على ذلك التفسير قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

٤- مرحلة تكوين العظام والعضلات: فى هذه المرحلة تتكون الخلايا العظمية لتحل محل الخلايا الغضروفية التى كانت موجودة من قبل وبعد تكون العظام يتم تكوين العضلات (اللحم) الذى يكسو العظام ويحيط به ويساعد على حركتها.

ويعبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة بقوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

٥- مرحلة الجنين الإنسانى أو التسوية النهائية للجنين: عندما يكتمل نمو الأعضاء الداخلية والخارجية للجنين يتم نفخ الروح فى الجنين الإنسانى وينبض القلب ويشق سمعه وبصره ويتحرك فى بطن أمه حركة تشعر بها الأم، وتتكون للجنين قوى الحس والحركة والإدراك والإرادة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ويقول عز وجل: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

وهنا إشارة إلى أهمية تحديد بدء هذه المرحلة النهائية لنمو الجنين الإنسانى، فمتى نفخت فيه الروح حرم الإجهاض تحريمًا قاطعًا بإجماع الفقهاء.

وتبدأ هذه المرحلة مع بداية الشهر الرابع للحمل.

وفى هذا يقول عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر له ـ وفى رواية ـ ويكتب له ـ أربع: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد... الحديث» [رواه البخارى فى بدء الخلق، ومسلم فى أول كتاب القدر].

وهذه المرحلة هى التى يتميز بها المخلوق البشرى عن غيره من المخلوقات، فقبلها قد لا يستطيع علم الأجنة أن يميز بين الجنين البشرى وغيره من أجنة الفقاريات الأخرى من الفقاريات أما عندها فيأخذ الجنين عند الإنسان شكله الإنسانى الذى يتميز به عن غيره من الأجنة.

نمو الإنسان بعد الميلاد كما جاء فى القرآن الكريم:

يذكر القرآن الكريم المراحل التى يمر بها نمو الإنسان بعد الولادة والتى قد تبدأ فى نهاية الشهر السادس من الحمل وهى الفترة الزمنية التى يجب أن يستغرقها الحمل أو التى يحتاجها الجنين للبقاء داخل الرحم حتى يولد حيًا، وبالطبع فإن فترة الحمل قد تكون أكثر من ذلك وتمتد حتى ٢٨٠ يومًا تقريبًا أو ٤٠ أسبوعًا وهذه المدة لا يمكن حسابها بدقة لأنها من تقدير الله سبحانه وتعالى الذى يقول فى القرآن الكريم: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

ويقول سبحانه وتعالى موضحًا أقل فترة للحمل: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

بمعنى لو طرحنا فترة الرضاعة ومقدارها (٢٤ شهرًا) من الفترة الكلية المذكورة فى القرآن الكريم وهى (٣٠ شهرًا) تكون الفترة المتبقية هى ستة أشهر كاملة وهى

الفترة الزمنية المشار إليها التى يجب أن يستغرقها الحمل وهى أدنى فترة للحمل عند الإنسان.

ثم يحدد القرآن الكريم ثلاث مراحل كبرى لنمو الإنسان بعد الميلاد وهى:

أ ـ مرحلة الضعف. ب ـ مرحلة القوة . جـ ـ مرحلة الضعف والشيبة.

يقول تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

حيث يولد الطفل ضعيفًا فى حاجة إلى من يرعاه ويعتنى به حتى ينمو ويكبر ويستمر نمو الوليد بسرعة كبيرة فى الأيام الأولى من حياته، ولكن تأخذ سرعة النمو تتباطأ تدريجيًا مع تقدم العمر، وتبدو عمليات النمو هادئة مستقرة قبل فترة المراهقة، وما أن تبدأ مرحلة المراهقة حتى تتوالى على الطفل تغيرات قوية وسريعة عضوية وتشريحية ونفسية ثم تهدأ سرعة هذه التغيرات مع نهاية مرحلة المراهقة وبداية مرحلة الرشد التى تكتمل فيها عملية النمو لتعود مرة أخرى إلى الهدوء والاستقرار. ومع أن الراشد يكون قد بلغ تمام النضج فى نموه الجسمى، ونمو قدراته العقلية إلا أنه يستمر فى تعلم خبرات جديدة، وفى اكتساب المعرفة فى شتى صنوفها، ويكتسب الخبرة والحكمة حتى يصل إلى مرحلة الشيخوخة فتأخذ قوته الجسمية فى الاضمحلال، وتبدأ قدراته العقلية فى الضعف.

يقول عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

وفيما يلى عرض لهذه المراحل الكبرى لنمو الإنسان بعد الولادة كما جاء فى القرآن الكريم:

أ ـ مرحلة الضعف الأولى للإنسان:

وهى مرحلة الطفولة كما وصفها القرآن الكريم فى عدة مواضع منها: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

ويميز القرآن الكريم فى هذه المرحلة بين أربع مراحل فرعية هى:

١ - الرضاعة: ومدتها القصوى عامان كما أوضحت الآيات القرآنية الكريمة:

- ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].
- ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

٢ - الطفل غير المميز: (غير المستأذن):

وتمتد من الفطام من سن سنتان وحتى سن الاستئذان وهو سن التمييز المبكر.

يقول تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

حيث يفسر القرطبى هذه الآية بأنهم الأطفال الذين لم يكشفوا عن عورات النساء لصغرهم، وعدم تمييزهم بعد.

٣ - الطفل المميز (المستأذن):

وهى المرحلة التى يعقل فيها الطفل معانى الكشفة والعورة ونحوها. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور: ٥٨].

٤ - بلوغ الحلم:

وهى مرحلة هامة تتحدد فيها مستويات قريبة من مستويات الكبار حيث الاستئذان على وجه الإطلاق وليس لفترات محددة كما أوضحت الآية القرآنية المذكورة حيث يقول تعالى عقب هذه الآية: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

ومن المعروف أن بلوغ الحلم يقصد به بداية مرحلة البلوغ وهو سن المراهقة كما يطلق عليه فى علم النفس.

ب ـ مرحلة قوة الإنسان:

وهى مرحلة الرشد حيث يتحول الإنسان من الضعف إلى القوة كما يصفها القرآن الكريم.

وبحسب ما جاء فى القرآن الكريم تنقسم هذه المرحلة إلى ثلاث مراحل فرعية كما يلى:

١- مرحلة بلوغ السعى:

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصفات: ١٠٢].

وقد فسر العلماء المفسرون لآيات القرآن الكريم ومنهم «القرطبى» أن المقصود بالسعى هو القدرة على السعى على الرزق والقيام بشئون الدنيا وأمورها. وأن بلوغ الابن مبلغ السعى هو معاونته لأبيه على أعماله وإدراكه لمهامه وشؤونه وتحمله مشقة الحياة مع أبيه: كما تعنى أيضًا سعة العقل واستخدام الحجة والقدرة على الحوار والمناقشة وإقامة الدليل.

٢- مرحلة بلوغ الرشد:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

فى هذه الآية جمع الحق بين قوتين وهما قوة البدن وهو بلوغ النكاح والقدرة على ذلك جسديًا، وقوة العقل والمعرفة وهى إيناس الرشد فليس مجرد وصول الصبى أو الفتاة سن البلوغ: والبلوغ فعلا سببًا فى جعله مسئولًا عن إدارة أمواله فضلًا عن استلامها لأنه ليس مؤهلًا لهذه التصرفات من الناحية العقلية والمعرفية فلو مُكنَ

اليتم من ماله قبل وصوله لقوة العقل وحصوله على المعرفة، لأذهب ماله فى شهواته وأضاعها فيما لا فائدة منه.

وفى الآية الكريمة ضرورة أن نتعرف على علامات حصول الرشد ومؤشراته وهذا هو معنى إيناس الرشد، وذلك لأن الرشد ليست له حدود زمنية محددة يصل إليها الجميع فى زمن واحد أو فى سن معينة. وقد لا يصل إليه بعض الأطفال أبدًا وهم فئة المعاقين ذهنيًا حيث يبلغ مبلغ النكاح جسديًا لكنه يظل متأخرًا من الناحية العقلية ويعاملون معاملة الأطفال مدى حياتهم.

٣- بلوغ الأشد وهى مرحلة اكتمال الرشد واكتمال قوة الإنسان:

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥].

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ [غافر: ٦٧].

وفى هذه المرحلة تكتمل قوة الإنسان عقلا وجسدًا وتجتمع لديه الخبرات ويتسع إدراكه ويتحمل المسؤوليات الجسام ويحدث هذا عند بلوغ الإنسان سن الأربعين وهو عمر الرسالة والنبوة. حيث بعث رسول الله ﷺ وهو فى سن الأربعين. وهذه هى سن الكهولة وهى سن التكليف بالمسئوليات الكبرى، وفيها مجتمع الأشد.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢].

جـ- مرحلة الضعف والشيبة:

وهذه هى مرحلة الضعف الثانية فى حياة الإنسان إلا أنه ضعف مختلف عن

الضعف الأول السابق على الرشد حيث يضيف القرآن الكريم إلى هذه المرحلة وصف «الشيبة» والتى تحمل معنى الخبرة والحكمة إلى جانب تقدم السن.

ويقسم القرآن الكريم هذه المرحلة إلى مرحلتين فرعيتين هما:

١- مرحلة الشيخوخة:

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧].

وتأتى هذه المرحلة مباشرة بعد مرحلة اكتمال الأشد وبلوغ الإنسان منتهى قوته العقلية والجسدية، حيث تبدأ هذه القوى فى الاضمحلال التدريجى وإن كان الكثيرين يحتفظون بالقدرات العقلية العالية والخبرات العلمية والتعليمية التى حصلوا عليها خلال مراحل الرشد والأشد والقوة وتبدأ مرحلة الشيخوخة منذ بلوغ الإنسان سن الستين ـ ٦٥ وهى سن التقاعد بالنسبة لموظفى الدولة، ولعل هذا ما يساعد على التدهور النفسى والانفعالى لهؤلاء الشيوخ. بينما نجد من وصلوا إلى هذه السن وهم فى أعمال التعليم والتدريب والأعمال الحرة التى تتيح لهم فرصًا لإعطاء الخبرة وتعليم الأجيال الصاعدة، وتقديم الاستشارات العلمية والمهنية، نجدهم أفضل حالاً عقليا ونفسيًا مما ينعكس على صحتهم العامة ويؤخر عندهم الإحساس بتقدم السن.

وتطلق كلمة الشيخ على الأستاذ والعالم وصاحب الفضيلة وكبير القوم ورئيس الصناعة أو رئيس التجار. وهذا بسبب حكمة الشيخ وخبرته وعطائه فى مجاله، وذلك يكسبه الاحترام والتبجيل والتقدير.

٢- مرحلة أرذل العمر:

وهى مرحلة الهرم والوهن، يقول تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

ويصفها الله سبحانه وتعالى بأنها مرحلة الضعف الجسدى وانتهاء القوة أو

خوارها، وانتكاس الخصائص النفسية والعقلية والانفعالية والهيئة الجسدية وفقد القدرة على التعلم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤].

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ [يس: ٦٨].

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٠].

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن هذه المرحلة يعتمد فيها الوالدين على الأبناء بسبب ضعفهما وانهيار حالتهم الصحية ولذلك يطالب الأبناء بالإحسان إلى الوالدين والتعامل معهما برفق.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وقد تكرر الأمر الإلهى بالإحسان للوالدين فى عدة آيات وسور من سور القرآن الكريم تأكيدا على أهمية هذا الأمر وخاصة الاحتياج الشديد للرعاية بالنسبة للوالدين الذين بلغا من العمر أرذله، وخارت قواهم، وضعفت حالتهم الصحية. وهذا التكرار إنما يدل على الإصرار على تذكير الأبناء بضرورة رد الجميل والدين الذى عليهم قبل الوالدين الذين تحملوا الكثير فى سبيل تربيتهم ورعايتهم عندما كانوا ضعفاءً صغارًا لا يدرون من أمرهم شيئًا.

والملاحظ أيضًا أن القرآن الكريم قرن الإحسان للوالدين بعبادته سبحانه وتعالى فى أكثر من موضع حتى يرشدنا لأهمية برهما ورعايتهما. حيث يقول جل شأنه.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى ﴾ [النساء: ٣٦].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى ﴾ [البقرة: ٨٣].

النمو الإنسانى فى السنة النبوية الشريفة:

ورد فى الأحاديث النبوية إشارات إلى تفصيل بعض ما جاء فى القرآن الكريم فى مجال النمو الإنسانى، حيث روى الصحابة رضى الله عنهم الكثير من الأقوال والأفعال والتقارير عن رسول الله ﷺ لتفصيل ما أجملته آيات الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، وهى سلوكيات عملية وممارسات فعلية لما جاء فى القرآن الكريم.

وفيما يلى بعض ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة فى مجال النمو الإنسانى:

١- فى مرحلة ما قبل الولادة:

* يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «ما من كل الماء يولد الولد».

وهذا يوضح أن الجنين يتكون من جزء يسير من المنى.

وهو تفصيل لمعنى الآية القرآنية الكريمة: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [السجدة: ٨].

والماء المهين هو المنى، والسلالة هى الخلاصة.

* يقول رسول الله ﷺ: «إذا دفعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكا يقول: يا رب مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دمًا، وإن قيل مخلقة قال الملك: أى رب شقى أم سعيد؟ ما الأجل؟ وبأى أرض يموت».

وهذا الحديث يوضح طبيعة المضغة المخلقة وغير المخلقة وتفصيل صريح لمعناها بأن المضغة غير المخلقة تعنى السقط أى التى لا يكتمل نموها وتسقط من الرحم.

* سأل بعض اليهود النبى ﷺ عن خلق الإنسان هل من الرجل أم من المرأة.

فقال الرسول الكريم ﷺ: «يا يهودى: من كل يخلق، من نطفة الرجل ونطفة المرأة».

وهذا توضيح صريح لطبيعة النطفة الأمشاج التى ذكرت فى القرآن الكريم وأنها تعنى النطفة التى اختلطت فيها ماء الرجل (المنى) بماء المرأة (البويضة) كما أجمع على ذلك المفسرون.

* جاء فى الصحيحين بخارى ومسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون مثل ذلك مضغة، ثم يرسل الله المَلَكْ فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد».

وهذا الحديث يوضح تفصيلًا الفترة الزمنية التى يقضيها الجنين داخل الرحم فى مراحل نموه المختلفة التى جاءت إجمالًا فى الآية القرآنية الكريمة التى توضح مراحل خلق الإنسان. حيث يقول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

ويعنى الحديث الشريف أن الجنين ينمو فى مراحل ثلاث هى:

تجميع الخلق وهى مرحلة النطفة الأمشاج وتستمر ٤٠ يومًا، ثم تكون علقة وتستمر ٤٠ يومًا كذلك، ثم تكون مضغة وتستمر كذلك إلى ١٢٠ يومًا. ثم يكون الجنين بعد ذلك حيث يكتمل تكوينه إلى حين لحظة الولادة.

وجاء فى الصحيحين أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكًا يقول: أى رب نطفة؟ أى رب مضغة؟ فإذا أراد الله أن يقضى خلقًا قال: يارب أذكر أم أنثى؟ أشقى أم سعيد؟ فى الرزق، فى الأجل، فيكتب ذلك فى بطن أمه».

٢- مراحل النمو بعد الولادة كما جاءت فى السنة النبوية المطهرة:

*** مرحلة الوليد (الأسبوع الأول من حياة الطفل):**

يوصى عليه الصلاة والسلام بذبح العقيقة عن المولود فى اليوم السابع وتسميته. ويوصى بحسن اختيار اسم المولود فيقول ﷺ: «الغلام يعق عنه يوم السابع».

ويقول أيضًا عليه الصلاة والسلام: «من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه».

*** مرحلة ما قبل التمييز (قبل سن السابعة):**

يقول عليه الصلاة والسلام «... داعبه سبع...».

*** مرحلة التمييز:** سن السابعة:

وهى المرحلة التى يبدأ فيها تعلم الطفل وتأديبه: يقول النبى الكريم ﷺ: «... أدبه سبع...».

ويقول أيضا: «مروهم بالصلاة لسبع..».

*** مرحلة البلوغ الجنسى:** وعندها يبدأ التكليف بالعبادات ووجب الفصل بين الأبناء عند النوم.

يقول ﷺ: «... اضربوهم على الصلاة لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع».

*** مرحلة الرشد:** وهو اكتمال النضج ومؤشر ذلك الزواج.

حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «أدبوه لسبع، وزوجوه لسبع عشرة».

* ويوصى عليه الصلاة والسلام الوالدين بالطرق السوية السليمة لمعاملة الأبناء وذلك عن طريق أقواله وأفعاله الشريفة كما يلى:

- **حسن أدب الطفل وحسن اختيار اسمه:** فيقول عليه الصلاة والسلام: «من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه».

obeikandl.com

- **المساواة فى المعاملة**: يقول ﷺ: ساووا بين أولادكم فى العطية».

- **الرحمة والرأفة بالصغير**: عن عائشة رضى الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قال: نعم. قالوا لكنا لا نقبل صبياننا، فقال ﷺ: «أو أملك إن كان الله نزع الرحمة من قلوبكم».

كما يروى أبى هريرة أن الأقرع بن حابس رأى النبى ﷺ وهو يقبل الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ فقال: أن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا.

فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «من لا يَرحم لا يُرحم».

٣- تأثير الوراثة والبيئة على النمو اكما أوضحتها السنة النبوية المطهرة:

* **يقول المصطفى ﷺ**: «إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم».

ويقول أيضًا: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

والمقصود بالعرق هنا هو عرق الوراثة الممتد من السلف إلى الخلف وهو بالتعبير الطبى (المورثات) أو (الجينات). والتى لم تكتشف إلا فى مطلع القرن العشرين الميلادى.

وأما عن البيئة وتأثيرها على النمو؛ يقول الرسول ﷺ: محذرًا أصحابه من سوء أخلاق الزوجة؛ «إياكم وخضراء الدمن» قالوا: وما خضراء الدمن؟

قال: «المرأة الحسناء فى المنبت السوء».

* وقد سبقت الأحاديث النبوية الشريفة العلم فى التعرف على ظاهرة الصفات المتنحية فى الوراثة والتى لم يكتشفها العلم إلا فى القرن العشرين.

فقد جاء أحد الأنصار إلى رسول الله ﷺ: فقال له: يا رسول الله هذه بنت عمى وأنا فلان بن فلان حتى عد عشرًا من آبائه. وهى فلانة ابنة فلان ابن فلان حتى عد عشرًا من آبائها. وليس فى حسبى ولا فى حسبها حبشى ـ ولد أسمر اللون ـ وأنها

وضعت هذا الحبشى. فأطرق النبى عليه الصلاة والسلام ثم رفع رأسه وقال له: إن بك تسعة وتسعون عرقًا، ولها تسعة وتسعون عرقًا فإذا اشتملت اضطربت العروق. وسأل الله عز وجل كل عرق منها أن يذهب الشبه إليه.

قُمْ فإنه ولدك، ولم يأتك إلا من عرق منها أو منك».

وفى حديث آخر عن أبى هريرة قال: جاء رجل من بنى فزاره إلى رسول الله ﷺ فقال: ولدت أمرأتى غلامًا أسود وهو يريد أن ينفيه عنه، فقال رسول الله ﷺ: هل لك إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حمر. قال: هل فيها اسمر أو أروق (ما كان مثل لون الرماد)؟ قال إن فيها أروقًا. قال: فأنى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن نزعه عرق. قال: فهذا عسى أن يكون نزعه عرق. ولم يرخص له بنفيه عنه».

* الفطرة والوراثة تتأثر كثيرًا بالبيئة ولا تعمل منفردة؛ وبخاصة بيئة الأسرة التى ينمو فيها الطفل:

يقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه».

وفى هذا الحديث الشريف كشف لحقيقة تفاعل الوراثة والبيئة فى إفراز الشخصية الإنسانية ومعتقداتها واتجاهاتها.